

ضريبة البورتوريوم في بلاد المغرب القديم خلال القرنين الثاني والثالث ميلادي وأثرها على المنطقة-نقيشة زراي أنموذجا-

The portorium tax in the countries of the ancient Maghreb during the second and third centuries AD and its impact on the region – inscription of Zurai as a model-

عماد بونقاب^{1*}

¹ جامعة باتنة1- مخبر: دراسات في التاريخ، الثقافة والمجتمع، (الجزائر). imad.bounnagab@univ-batna.dz

تاريخ القبول:2023/06/12

تاريخ الإرسال:2022/06/03

ملخص:

تسلط هذه الدراسة على موضوع مهم يخص الجانب الاقتصادي للإمبراطورية الرومانية خلال القرنين الثاني والثالث ميلادي، والمتمثلة في ضريبة البورتوريوم، حيث تعتبر إحدى أبرز المصادر الجبائية خلال تلك الفترة، إذ سعت من خلالها روما إلى توفير أكبر قدر ممكن من المداخيل الضريبية اللازمة لإنعاش اقتصادها والتي يطلق عليها تسمية ضريبة العبور وهي شاملة لجميع المقاطعات الرومانية الخاضعة لها، لعل أبرزها بلاد المغرب القديم، وكغيرها من المناطق المحتلة، فقد عانت من آثار سلبية كبيرة مست مختلف المجالات سواء الاقتصادية، الاجتماعية، السياسية وحتى العسكرية، وما يؤكد على ما قيل العثور على نقيشة خاصة بضريبة العبور تسمى نقيشة زراي نسبة للمنطقة التي تم العثور عليها-منطقة زراية، والتي تعتبر أبرز المصادر المادية التي تم اكتشافها منذ سنة 1858م.

ومن أجل البحث والدراسة في هذا الموضوع ركزا على ابراز بعض النقاط الأساسية كمفهوم ضريبة البورتوريوم، أنواعها، أسباب اقرارها، نماذج عن الضريبة-ضريبة زراي أنموذجا-بالإضافة إلى الآثار المترتبة عن هذه الضريبة على بلاد المغرب القديم، والخاتمة.

كلمات مفتاحية: بورتوريوم؛ امبراطورية الرومانية؛ بلاد المغرب القديم؛ نقيشة زراي؛ ضرائب.

Abstract

This study highlights an important topic related to the economic aspect of the Roman Empire during the second and third centuries AD, represented by the portorium tax, as it is considered one of the most prominent sources of taxation during that period, through which Rome sought to provide the maximum possible amount of tax revenues necessary to revive its exhausted economy, because of the various problems it suffers at that economic, social, political Even the military, and what confirms what has been said, was the finding of an inscription for a transit tax called the Zurai inscription wish discovered since 1858.

In order to research and study this topic, they focused on highlighting some basic points, such as the concept of the portrait tax, its types, the reasons for its approval, models of the tax-the Zurai tax as a model-in addition to the implications of this tax on the ancient Maghreb, and the conclusion.

Keywords: Portorium; Roman Empire; ancient Maghreb; inscription of Zurai; taxes.

عملت الامبراطورية الرومانية منذ احتلالها لبلاد المغرب القديم على استنزاف خيرات المنطقة، في شتى المجالات خاصة الجانب الاقتصادي، سواء فيما يخص الشق الزراعي، الصناعي، التجاري وحتى الضريبي، هذه الأخيرة أولت لها الأهمية الكبرى، إذ عملت على تنظيم وتسيير النظام الضريبي لتحقيق أكبر قدر ممكن من المداخيل الجبائية، ولعل أبرزها تسمى بضريبة البورتريوم، أو كما يطلق عليها ضريبة العبور، هذه الأخيرة كانت الركيزة الأساسية التي تستند عليها روما في جلب رؤوس أموال تخولها لتحقيق وتسيير شؤونها الداخلية، خاصة، وقد ساعدها في ذلك طبيعتها الإمبريالية الاستعمارية التي تركزت على استنزاف خيرات المناطق المحتلة.

وقد عانت من هذه الضرائب بشتى أنواعها العديد من المناطق التي كانت خاضعة لها كبلاد المغرب القديم، خاصة خلال القرنين الثاني والثالث ميلادي، حيث كانت لضريبة البورتريوم على الكثير من الآثار سلبية على المنطقة، إذ مسّت مختلف مجالات الحياة، وتجدر الإشارة هنا إلى ورود العديد من المصادر الأدبية والمادية، فعلى سبيل المثال لا الحصر نقيشة زراي، التي كانت أكبر دليل على تطبيق هذه الضريبة ببلاد المغرب القديم، كذلك مجد العديد من الأبحاث والدراسات العلمية التي اهتمت بهذه النقيشة، نذكر منهم، بول تروست ومقاله بعنوان *Le tarif de Zaraï : essai sur les circuits commerciaux dans la zone présaharienne*، كذلك نجد ستيفان قدوين الذي أصدر مقال خاص بهذه النقيشة بعنوان: *La Lex uestis peregrinae dans le tarif de Zaraï*، فرونس جيروم ومقاله بعنوان: *Normes douanières et réglementation des échanges. trois questions simples sur le tarif de Zaraï (Numidie) ...*، واستنادا لكل ما قيل نطرح الإشكالية التالية: هل كانت البورتريوم الضريبة الوحيدة التي كانت تفرض على بلاد المغرب القديم خلال الفترة الرومانية أم هي جزء من مجموعة القوانين والتنظيمات الجبائية؟

والأسئلة التي نغذي بها الإشكالية ما يلي:

-ماذا نعني بضريبة البورتريوم؟ ماهي أنواعها؟

-ماهي نقيشة زراي؟ ما محتوها؟ وما هي النتائج المستقاة منها؟

-وفيما تتمثل النتائج المترتبة عن هذه الضريبة على بلاد المغرب القديم؟

2- مفهوم ضريبة البورتريوم

قبل الخوض في مفهوم ضريبة البورتريوم لابد لنا من الإشارة إلى أن الضرائب الرومانية قد انقسمت إلى نوعين: النوع الأول هي عبارة عن ضرائب مباشرة نذكر منها: ضريبة الأنونة المدنية، الأنونة العسكرية، ضريبة الرأس، ضريبة الأرض... أما النوع الثاني فهو الضرائب الغير مباشرة منها: ضريبة البيع، ضريبة الإرث، ضريبة البورتريوم، هذه الأخيرة هي أساس دراستنا التالية، حيث

ضريبة البورتريوم في بلاد المغرب القديم خلال القرنين الثاني والثالث ميلادي وأثرها على المنطقة-نقيشة زراي أنموذجا-

تعددت المفاهيم والتعريفات المفسرة لمصطلح ضريبة البورتريوم الرومانية. عليها مصطلح العبور وباللاتينية البروتوريوم *Portorium* أو بالتيلونيوم *Telonium* ، ويعرفها روني كانيا يعرفها على أنها الضريبة المباشرة المفروضة على نقل البضائع، والتي تم تداولها من خلال الأراضي الرومانية أي تلك السلع العابرة لحدود الولايات التابعة لروما (Cagnat, 1880, p. 11). أما داليت فيعرف البورتريوم على أنها تلك المستحقات التي تفرض على الضرائب العابرة، بما في ذلك تلك التي يتم تحصيلها عند الحدود الخارجية أو الداخلية، في الجسور أو في نقاط أخرى داخل الحدود الرومانية، في حين يرى مومسن على أنها مجموعة الإيرادات المحصلة من المقاطعات الخاضعة لروما (Laet, Oct 1950, p. 23) ..

وما يفهم من كل هذه التعريفات على أن البورتريوم هي ضريبة كانت تفرضها الإمبراطورية الرومانية على البضائع المارة من حدود المقاطعات الخاضعة لها، هدفها كان زيادة أكبر قدر.

3-أسباب فرض ضريبة البورتريوم.

إن الاتساع الكبير الذي شهدته الإمبراطورية الرومانية خلال القرنين الثاني والثالث أدى هذا الأمر إلى زيادة الإنفاق والحاجة لرؤوس الأموال، كما حتم على الدولة البحث عن مصادر مالية جديدة، أهمها : فرض ضرائب جديدة على السكان، أعمال السخرة، تقديم التموين للجيش، حيث كانت بلاد المغرب القديم أكبر الولايات الرومانية التي تدفع الضرائب إلى السلطات الرومانية خاصة في القرن الثالث ميلادي (تسعديت، 1990، صفحة 162) ، وهذه السياسة الاستنزافية أدت إلى انخفاض مردود الأرض، وتعدد الضرائب وتجاوزات الشركات، بالإضافة إلى النمو الديموغرافي الكبير، أدى إلى تأثر المزارعين، مما دفعت بالكثير منهم إلى الهجرة عن أراضيهم والتوجه إلى المدن بحثا عن ظروف حياة أحسن، إذ ساعدهم في ذلك منح حق المواطنة لهم، مما أدى إلى تراجع المساحات المستغلة، وما تبع ذلك من تراجع في الإنتاج، انخفاض مداخيل الخزينة الرومانية التي أصبحت عاجزة عن تموين المواطنين الرومان بالمؤن، مما ساهم في نشر حياة عدم الاستقرار السياسي، حيث دامت هذه الأوضاع مدة طويلة سميت بالفوضى العسكرية (بشاري، 2006/2007، صفحة 273) .

سعي السلطات الرومانية في فرض والعناية بالنظام الضريبي هو تغطية العجز المالي الذي عاشته، بسبب البذخ والمصاريف الكثيرة في عهد بعض أباطرتها كنيرون، تراجان، كومودوس... بالإضافة إلى الحروب الأهلية وتبعاتها، خاصة الحرب التي كان طرفي الصراع أوكتافيوس أغسطس وأنطونيوس خلال نهاية القرن الأول ميلادي، كذلك الحرب التي حدثت ما بين 68 إلى 70 ميلادي، حيث كادت أن تفلس الدولة خلال هذه الفترات، مما أدى بهم إلى تعديل النظام الضريبي، كذلك فرضت أعباء جديدة على الأفراد والمجتمعات (ددلي، 1964، صفحة 272)، كما زادت قيمة الجزية

وأصبح البلاط يعيش التقشف، كما طلب من الموظفون المليون بإتباع سياسة إنفاق رشيدة لمواجهة الأزمة المالية (دياكوف وكوفاليف، دت، صفحة 660).

سعت روما أيضا إلى تحقيق تنمية اقتصادية نتيجة مختلف الأزمات التي واجهتها، حيث وجدت نفسها زراعيا في طور المجاعة بسبب قلة الأراضي الزراعية، هروب الفلاحين، قلة الإنتاج الزراعي، صناعيا تحتضر بسبب قلة المصانع، عدم توفر اليد العاملة، قلة المواد الأولية، ضعف الاستثمارات ورؤوس الأموال، تجاريا التأثر بضعف الإنتاج الزراعي والصناعي، العيش بما توفره لها باقي المقاطعات التابعة لها، لذا لم يكن لها أي مخرج سوى فرض الضرائب والعناية بالنظام الجبائي الإستنزافي الذي مس الطبقة الفقيرة والمتوسطة (Rostovtseff, 1987, p. 21).

4-أنواع ضريبة البورتريوم

تطرقنا في العنصر السابق إلى مفهوم ضريبة البورتريوم، حيث أبرزنا مختلف وجهات النظر لبعض الباحثين في هذا المجال، أما الآن سندرس أنواع هذه الضريبة، إذ لا بد من الإشارة إلى أنها تندرج ضمن الضرائب الغير مباداه التي كانت تفرضها روما على المقاطعات الخاضعة لها، ونظرا للأهمية الكبيرة التي تكتسبها البورتريوم، خاصة مع النشاط التجاري وتوسيع الأملاك الرومانية باحتلال العديد من المناطق سواء في الشرق أو الغرب، في الشمال أو الجنوب، فقد عملت روما على تقسيم البورتريوم أو ضريبة العبور على ثلاثة أقسام أساسية وهي:

الضريبة الخاصة بالجمارك، ضريبة الرسوم، ضريبة المنح، فالجمارك هي تلك الضرائب التي تفرض على السلع التي تمر على حدود الإمبراطورية، أما المنح فهي ضريبة تحدها المدينة عند دخول السلعة عبر بواباتها، والرسوم تكون خاصة بالفرد المسافر على الطرق أو الأنهار، وجمعت في مصطلح واحد أطلق عليه تسمية البورتريوم (Cagnat, 1880, p. 8)، لكن برز تقسيم آخر حيث قسم هذه الضريبة إلى نوعان وهي: نوعان الأول خاص بالسلع الأصلية والتي تمر من مقاطعة رومانية إلى أخرى، أما النوع الثاني فتكون سلعه أقل أصالة وأقل تنوع مستمدة من مناطق مجاورة للإمبراطورية الرومانية، وقد تم تقسيم الإمبراطورية إلى تسعة مناطق جمركية وهي: إفريقيا، مصر، آسيا، إسبانيا، صقلية، إيطاليا، إيليزيكوم، بريطانيا، بلاد الغال. يروي لنا الراهب الغالي سالفيان في إحدى مذكراته ما بين 440-450م معلومات حول النظام الضريبي القائم خلال تلك الفترة إذ يقول: "الأخطر من ذلك هو أن الكثرة ترى بضائعهم تصادر من قبل القلة، الذين يعتبرون جباية الضرائب العامة فريسة سهلة يلائمونها ويحصلون بها على مكاسب خاصة من عناوين الدين المالي....." (Corbier, 1991, p. 656)

5-البورتريوم في بلاد المغرب القديم

عملت روما منذ بداية احتلالها لبلاد المغرب القديم، على استنزاف كل خيرات المنطقة سواء الزراعية، الصناعية، التجارية وحتى الجبائية، فكانت المنطقة أكبر مصدر دخل للإمبراطورية

ضريبة البورتريوم في بلاد المغرب القديم خلال القرنين الثاني والثالث ميلادي وأثرها على المنطقة-نقيشة زراي أنموذجا-

الرومانية، هذا الأمر حتم عليها تنظيم وتجنيد كل الوسائل المتاحة التي تحقق الاستغلال الأمثل لخيرات المنطقة، ومن بين هذه الوسائل فرض ضريبة البورتريوم، وقد برزت أولى بوادره خلال العهد الجمهوري ليسير في ديمومته إلى غاية سقوط الإمبراطورية باعتباره أهم مساهمة غير مباشرة لدعم الخزينة، حيث يرى بعض الباحثين أنه لا ينبغي اعتباره كضريبة غير مباشرة بل دخلا للدولة، إذ يرون أن الدولة لا تشتط ذلك بحكم حق قانوني بل بحق الملكية (Cagnat, 1880, p. 4)، فأولى الأباطرة الرومان الأهمية الكبيرة لهذه الضريبة، وذلك لما تدر عليهم من أموال ضخمة، تملئ بواسطتها خزائنها الشخصية التابعة للدولة، إذ قاموا بإنشاء دوائر جمركية في كل المناطق النشطة تجاريا سواء البرية أو البحرية، فمثلا في بلاد المغرب القديم، برزت بعض المناطق الجمركية التي كان لها السيط الكبير كميناء روسيكادا، حيث اكتشفت شواهد أثرية بمنطقة لمبار، الذي عثر فيها على نص منقوش يعتبر كتعريف تثبت وجود ضريبة الجمركة التي تدفع هناك، كذلك نقيشة زراية وتعريفاتها الشهيرة (سنعود إليها بالتفصيل فيما بعد) (حمومة، 2014/2015، صفحة 99) كذلك الخط البري الرابط بين سيقوس وسيتيفيس على مسافة 55 ميلا رومانيا وفق لما أوردته خريطة بوتينجر.

6- البروتريوم في بلاد المغرب القديم-نقيشة زراي أنموذجا-

1-6 أصل التسمية

حملت المدينة العديد من التسميات المتشابهة عبر تاريخها، فمصطلح زراي "Zarai" هو اسم محلي، مشتق من الكلمة "ZRY" الذي يعني "المرور" أو "الغريلة" أو "الجمركة"، كما سميت أيضا ب"أزري"، "Azray" في اللهجة الشلحية أو القبائلية (pol, 2022, p. 355)، أما في اللهجة الترقية، فحافظ الاسم على شكله القديم "أزراي" "Azaray"، هذه الصيغة الاسمية تكشف في حد ذاتها قيمة الموقع قديما على أساس انه كان منطقة لعبور السلع، أما في اللهجة الشاوية التي يتواصل بها السكان المحليون لهذه المنطقة فكلمة "زراي" مشتقة من الفعل "يزرا" بمعنى "رأى" أو "رأني"، أما مصدر هذه التسمية ومدلولها يبقى مجهول المصدر وتبقى فقط مجرد فرضيات، ليس إلا (راشي، 2022، صفحة 122).

تقع زراي في المنطقة التابعة لإقليم الهضاب العليا، بين سلسلي الأطلس التلي والأطلس الصحراوي، يحد هذه المنطقة من الشمال جبال الساطور وسهول الهضاب العليا ومن الجنوب سلسلة جبال الرحبات وجبال الحضنة، تبعد عن ولاية سطيف بحوالي 75 كلم، وعن بلدية بيضاء برج بحوالي 14 كم، يحدّها من الشرق مشتة أولاد وذلاف، السعدانة وأولاد خامس، ومن الغرب أولاد مبارك ودائرة عين أزال، شمالا أولا سي لكحل وبلدية بيضاء برج، جنوبا مشتة الشوافع وبلدية الرحبات (راشي، 2022، صفحة 123).

2-6 التعريف بالنقيشة

هي عبارة عن نص أثري منقوش على حجر، طوله 128 سم، وعرضه 40 سم، أكتشف سنة 1858 ميلادي (Guédon, 2014, p. 94)، حيث تم اكتشافه النص خلال الحفريات التي أجريت بالمنطقة، خلال الفترة الفرنسية، إذ وجدت بالصدفة من خلال حفر قواعد لبناء طاحونة بالمنطقة، ليتم العثور على هذه النقيشة، التي أرخت في حدود 202م، أي خلال مرحلة حكم الإمبراطور الروماني سبتيموس سيفيروس، الذي إهتم بالجانب الجبائي وعمل على تنظيمه، أما فيما يخص قضية المسؤول عن إعداد أو الإشراف عن هذه النقيشة، فقد تعددت آراء الباحثين فهناك من يرى أن المندوب الخاص بمقاطعة نوميديا الذي يسمى كوينتوس أنيسيوس فاوستس هو المسؤول عن كتابة هذه النقيشة، في حين هناك من يرى أن وكيل النيابة العامة والسلطة، الذي يعتبر هو المسؤول عن البورتوريوم (تطرقنا فيما سبق إلى هذه الضريبة بالتفصيل) في افريقيا هما من أصدرتا تلك القرارات وبنود النقيشة.

وقبل أن نختم هذا التعريف لا بد من الإشارة إلى بعض النقاط المهمة في هذه الشأن: لم تكن نقيشة زراي الوحيدة فيما يخص البورتوريوم بل وجدت العديد من النقائش المشابهة في مقاطعتي نوميديت وموريطانيا، نذكر منها: مدينة كويكول، لمباز، زراي، ستيفيس، بريسيديوم، ماكثر... (pol, 2022, pp. 355-356)

-تعتبر النقيشة مرجعا أساسيا في دراسة النظام الضريبي الروماني في بلاد المغرب القديم عامة، والضريبة البورتوريوم خاصة، لذا أولى لها الإحتلال الفرنسي خلال تلك الفترة الأهمية الكبرى، حيث تم نقلها إلى فرنسا لدراستها والتي انبثقت العشرات من البحوث التاريخية في هذا الشأن، لكن بعد الاستقلال استطاعت الجزائر من استرجاعها، وتم وضعها في متحف الآثار بالجزائر العاصمة.

-وجد بمنطقة زراي الكثير من النقائش الأخرى في شتى المجالات الاقتصادية، الاجتماعية الدينية... حيث أحصي حوالي 60 نقيشة، أغلبها تشير إلى رتب عسكرية وأسماء رومانية، مما يوحي بأنه قد حدث استيطان للجنود والمحاربين المتقاعدون الرومان بزراي، حيث كانت تعتبر ذات موقع استراتيجي مهم، إذ تتوسط البلاد المغربية، فهي تربط ما بين شرقها وغربها، شمالها وجنوبها، تربط ما بين منطقة الهضاب العليا، والمناطق الشبه صحراوية، لذا كانت ذو أهمية كبرى خلال تلك الفترة (France, 2014, p. 93).

ضريبة البورتريوم في بلاد المغرب القديم خلال القرنين الثاني والثالث ميلادي وأثرها على المنطقة-نقيشة زراي أنموذجا-

3-6 محتوى النقيشة

Imp(eratoribus) Caes(aribus) L(ucio) Septimi o Seuero III et M(arco) Aurelio Antonino Aug(ustis) Piis co(n) s(ulibus) Lex portus post discessum coh(ortis) instituta Lex capitularis mancipia sin gula (denarius et quinarius) equ(u) m equam (denarius et quinarius) mulum mulam (denarius et quinarius) asinum bouem (quinarius) porcum (sestertius) porcellu(m) (dupondius) ouem caprum (sestertius) edum agnum (dupondius) pecora in nundinium immunia Lex uestis peregrinae abollam ce natori(a) m (denarius et quinarius) tunicam ternar iam (denarius et quinarius) lodicem (quinarius) sagum purpurium (denarius) cetera uestis Afra in singulas lacinias (quinarius?) Lex coriaria corium perfectu(m) (quinarius) pilos(um) (dupondius) pelle(m) ouella(m) caprin(am) (dupondius) scordiscum malac(um) p(ondo) c(entum) rudia p(ondo) c(entum) (quinarius) glutinis p(ondo) d(ecem) (dupondius) spongiaru(m) p(ondo) d(ecem) (dupondius) uacat Lex portus m(a) xim(a?) pequaria iument(a) immunia ce teris rebus sicut ad caput uini amp(horam) gari amp(horam) (sestertius ou quinarius ?) palmae p(ondo) c(entum) (quinarius) fici p(ondo) (centum) (quinarius) uatassae mo dios decem nucis modios dec(em?) resina(m) pice(m) alumin p(ondo) c(entum) ferr(i?)

4-6 تحليل النقيشة

تعتبر هذه النقيشة أبرز ما اكتشف فيما يخص الجانب الاقتصادي وبالضبط الضريبي، حيث قسم مضمونها إلى أربعة أصناف رئيسية، كل صنف خاص بضريبة معينة وهي: ضريبة الرأس أو الميراث، ضريبة العبيد، ضريبة الجمركة أو المرور، الضريبة على البريد (France, 2014, p. 100)، يتم تقديمها كقائمة من المنتجات تصنف تحت عناوين مختلفة مع ذكر التعريف التي يتم تطبيقها عند العبور من الحدود، وذلك في إطار ما يسمى بالبورتريوم، ومن بين تلك السلع نجد العبيد، الحيوانات، الجلود ومشتقاتها، الأقمشة... هذا فيما يخص بالسلع المستوردة (في إطار التجارة الصحراوية، أما المصدر فهي النبيذ، التمر، التين، الأقمشة الأرجوانية باهضة الثمن... (pol, 2022, pp. 355,362)

وفي الجدول التالي سنبرز أهم الضرائب المذكورة في نقيشة زراي، وقيمة كل نوع:

أ--ضريبة الرأس

البضاعة	قيمة الضريبة
العبد	ديناريوس ونصف
فرس	ديناريوس ونصف
بغل، بغلة	ديناريوس ونصف

عماد بونقاب

نصف دينار يوس	حمام، ثور
سسترس	خنزير
2 آس	خنزير رضيع
سليسترس	كبش، ماعز
2 آس	جدي وديع
معفاة	مواشي السوق

ب- الضريبة على الملابس:

البضاعة	قيمة الضريبة
معطف	دينار يوس ونصف
جلباب	دينار يوس ونصف
غطاء	نصف دينار يوس
عباءة أرجوانية	دينار يوس
الأقمشة الافريقية بالقطعة	أس

ج- ضريبة على الجلود:

البضاعة	قيمة الضريبة
جلد محضر	نصف دينار يوس
جلد غير محضر	2 آس
جلد كبش أو ماعز	2 آس
جلد طري بمائة رطل	أس
جلد خاك بمائة رطل	نصف دينار يوس
صمغ بعشرة أرطل	2 آس
إسفنج بعشرة أرطل	2 آس

د- ضريبة العبور:

ضريبة البورتريوم في بلاد المغرب القديم خلال القرنين الثاني والثالث ميلادي وأثرها على المنطقة-نقيشة زراي أنموذجا-

البضاعة	قيمة الضريبة
الحيوانات الموجهة للرعي ودواب النقل	معفاة
جرة من الخمر	سيستريوس
جرم من الجاريوم	سيستريوس
تمر بمائة رطل	نصف ديناريوس
تبين بمائة رطل	نصف ديناريوس
عشرة صاع من الجوز	؟
ضمغ، زفت، حجر الشب بمائة رطل	معفاة

جداول تمثل: البضائع الخاضعة للضريبة والمذكورة في نقيشة زراي (تسعديت، 1990، الصفحات 173-174).

5-6 التعليق على النقيشة

بعد دراسة هذه النقيشة لآبد من إعطاء بعض الآراء حول نقيشة زراي لعل أبرزها:
 -تنوع السلع، ما بين المصدرة والمستوردة، ما بين الغذائية، الملابس، الحيوانات...هذا يوجي وبصورة واضحة على أن النشاط التجاري في بلاد المغرب خلال تلك الفترة كان مزدهرا ومتنوعا، مما ساهم في رفاهية الفرد خلال تلك الفترة.
 -لم يسلم لا إنسان ولا حيوان من الضرائب التي فرضت خلال تلك الفترة وفقا لما ورد في نقيشة زراي، حيث يدل هذا على أن أهم شيء بالنسبة لروما هو التحصيل الضريبي ولا يهمها لا تجارة ولا علاقات، ولا إزدهار بلاد المغرب القديم.
 تعتبر نقيشة زراي كدليل مادي لا شك فيه يؤكد على وجود تجارة مغربية داخلية قديمة، خاصة ما بين الشمال والجنوب، في إطار التبادل التجاري، خاصة فيما يخص التجارة الصحراوي، فيفضل هذه الوثيقة استطعنا معرفة طبيعة هذه العلاقة، أنواع السلع المتبادلة، مقدار الضرائب، إلغاء النظرية القائلة أن سكان الجنوب لا حضارة لهم، وأنهم بربر يعيشون بالرعي لا غير.
 -أهم نقطة هنا هو عدم المساواة في فرض الضرائب حيث استفاد الجنود والمحاربون القدامى من إعفاء ضريبي للسلع المخصصة لاستخدامهم الشخصي، وأنه يوجد أيضا نظام خاص بإعفاءات معينة لأشخاص معينين، وهذا تجسيد حقيقي لعدم المساواة الجبائية، حيث أثقل كاهل الشعب والفلاحين والتجار بمختلف أنواع الضرائب، في حين الطبقة الغنية أو الجيش يتم إعفائه من مختلف أنواع الضرائب.

7-آثار ضريبة البورتريوم على بلاد المغرب القديم

إن أول عمل قامت به روما من أجل التحصيل الضريبي الجيد هو السيطرة على الأقاليم ومختلف المقاطعات التابعة لها، خاصة تلك الغنية بمختلف الثروات الطبيعية والجبائية، خاصة بعد اعتبارها أراضي رومانية وفقا لقانون الملكية العمومية للشعب الروماني والمسعى ب *Ager publicus populi romani* (Corbier, 1991, p. 663). هذا القانون سمح بالتصرف بكل الخيرات والمقومات التي تحظى بها مختلف الولايات التابعة لروما، كبلاد المغرب القديم، هذه الأخيرة كانت تعتبر المنبع الأساسي للضرائب التي تصل للإمبراطورية، حيث أثقلت الضرائب الرومانية كاهل الولايات بصفة عامة وبلاد المغرب بصفة خاصة، في حين حققت الرفاهية والازدهار لها، وفي هذا الصدد يقول أندريه ايمار: "...استمرت الولايات لوحدها في تحمل مثل هذه الأعباء المالية...وجدير بالذكر أنه لم يسبق للإمبراطورية أن عرفت عهدا من اليسر والازدهار المالي، كالعهد الذي مر عليها إذ ذاك، فقد راحت تنفق ببذخ على مشاريع تعد إذ ذاك من الكماليات..." (ايمار و جانين، 1986، صفحة 329).

إن الاتساع الكبير الذي شهدته الإمبراطورية الرومانية خلال القرنين الثاني والثالث أدى هذا الأمر إلى زيادة الإنفاق والحاجة لرؤوس الأموال، هذا ما حتم على الدولة البحث عن مصادر مالية جديدة، أهمها: فرض ضرائب جديدة على السكان، أعمال السخرة، تقديم التموين للجيش، حيث كانت بلاد المغرب أكبر الولايات الرومانية التي تدفع الضرائب إلى السلطات الرومانية خاصة في القرن الثالث ميلادي (تسعديت، 1990)، وهذه السياسة الاستنزافية أدت إلى انخفاض مردود الأرض، وتعدد الضرائب وتجاوزات الشركات، بالإضافة إلى النمو الديموغرافي الكبير، أدى إلى تأثر المزارعين، مما دفعت بالكثير منهم إلى الهجرة عن أراضيهم والتوجه نحو مدن بحثا عن ظروف حياة أحسن، إذ ساعدهم في ذلك منح حق المواطنة لهم، مما أدى إلى تراجع المساحات المستغلة، وما تبع ذلك من تراجع في الإنتاج، انخفاض مداخيل الخزينة الرومانية التي أصبحت عاجزة عن تموين المواطنين، ويصف لنا القديس ترتليانوس في مؤلفه المنافحة، التبذير والانفاق اللاعقلاني للطبقة الأرستقراطية على العديد من الكماليات التي هي في غنى عنها، ويستنكر هذا الأمر، وذلك بقوله: "... اليوم أرى أنه ينبغي أن يطلق اسم مآذب المائة على تلك التي ينفق فيها أكثر من مائة ألف درهم، وأن الفضة المستخرجة من المناجم تحول الى أطباق لا فرق في ذلك بين أعضاء مجلس الشيوخ والعبيد، حتى من لم يزالوا تحت عقق السياط..." (ترتليانوس، 2001، صفحة 22)

إن التطبيق الصارم للنظام الضريبي أدى إلى تدمير الفلاحين وملاك الأراضي، مما نتج عنه تجفيف لمصدر الضريبة، كون الطبقة الفقيرة والمتوسطة هي مصدر الدخل، هذا ما دفع بعض الأباطرة إلى فتح تحقيقات، والعمل على تقديم تنازلات قصد المحافظة على هذا المصدر الأساسي

ضريبة البورتريوم في بلاد المغرب القديم خلال القرنين الثاني والثالث ميلادي وأثرها على المنطقة-نقيشة زراي أنموذجا-

للخزينة ومن بين هؤلاء الأباطرة أغسطس أوكتافيوس، وهادريانوس من خلال مرسوم هادريانا (الذي تطرقنا إليه سابقا)، ومرسوم مانكيانا (الذي يرجح أنه خاص بتراجان)، حيث ألغوا الضريبة المفروضة على الأراضي البور، التي لا تنتج شيئا، كذلك الأشجار الجديدة التي لم تنبت (Lepelley, 1967, p. 136). وما أورده القديس أوغسطين على الضرائب الجائرة إلا خير دليل، حيث يروي لنا الأوضاع التي كانت قائمة خلال القرن الخامس بسبب السياسة الاستبدادية الضريبية الجائرة اتجاه الأهالي، خلال الفترة الرومانية، كما يشير إلى العديد من الشكاوى التي وصلت الكنيسة من قبل الأهالي والفقراء المهملين في أفرادهم وممتلكاتهم، والذين طلبوا اللجوء والهروب من استبداد الجباة (lepelley, 1981, p. 453). وقد برزت عن هذه السياسة الضريبية.

القسوة والهمجية التي كان يتعرض إليها المواطنون الذين تفرض عليها الضرائب من قبل المحصلون الجبايون، فبالرغم من التزامهم الضريبي إلا أن هذا لا يشفع لهم من منع الاعتداءات التي كانوا يعانون منها من قبل هؤلاء، سواء لفظية أو جسدية وحتى مالية، مما أدى بالسكان إلى هجرة أراضيهم والنزوح نحو المدن، والتخلي عن الريف، حيث تزايدت الشكاوى ضد السياسة الاستبدادية لجامعي الضرائب (Lepelley, 1967, p. 135). كما استهدف القديس أوغسطين المسؤولين عن عائدات الضرائب في المدن، حيث كان يميل إلى تحذير القوانين الإمبراطورية خلال تلك الفترة التي كانت تفرض على الضرائب، وقد ورد نص للقديس أوغسطين يصف حالة جباة الضرائب، إذ جاء فيه: "إن الجمهور محظور من قبل عدد صغير ممن يعتبر جباة الضرائب فريسة ناسهم...هل هناك مدينة في الواقع من بلدية أو قرية لا يوجد فيها عدد من الطغاة مثل جباة الضرائب..." (lepelley, 1981, p. 453).

اللامساواة التي شمت التحصيل والتوزيع، حيث برزت بصورة واضحة وجليّة في أن التحصيل الضريبي لم يكن عادلا ومتساويا، حيث تختلف من مقاطعة إلى أخرى من إقليم إلى آخر، من مدينة إلى أخرى، وقد تم إعفاء مدينة روما من دفع الضرائب، كما برزت اللامساواة بين أراضي التركات (Corbier, 1991, p. 65). فكما يقال شقاء الريف قابله ترف المدينة، وما يفهم من هذا أن المقاطعات التابعة لروما كانت تخضع للضرائب الجائرة والقاسية على عكس روما التي كانت تتمتع بخيرات ما يأتي من المناطق التابعة لها، وفي هذا الصدد يقول القديس أوغسطين: "...لقد كانت قضية الضريبة في الواقع وزاد الثقل الساحق للضرائب في الإمبراطورية السفلى بسبب الظلم في توزيعها..."، كما أشار أيضا إلى الظلم الذي عانى منه المواطن الإفريقي بسبب هذه الضرائب، حيث أثقلت كاهل الفئات الاجتماعية المختلفة، كما ساهمت أيضا في فساد الموظفين العموميين وزاد من إنتشار الفقر والأمراض، مما أدى إلى ثورات وفوضى كبيرة خلال تلك الفترة (lepelley, 1981, pp. 455,453).

من خلال هذه الدراسة المعنونة ب ضريبة البورتريوم في بلاد المغرب القديم خلال القرنين الثاني والثالث ميلادي وأثرها على المنطقة-نقيشة زراي أنموذجا- نستنتج مجموعة من النتائج أبرزها:

-تعدد المفاهيم المفسرة لضريبة البورتريوم، لكن الشيء المتفق عليه على أنها عبارة عن ضريبة جمركية تفرض على السلع المارة من المقاطعات التابعة لروما، حيث أولت لها الإمبراطورية الرومانية الأهمية القصوى لما تدر عليها من أموال كبيرة، استعملت في ملئ الخزائن الشخصية، وفي تجسيد المشاريع التنموية، بالإضافة إلى تغطيت العجز الذي أصابها في مختلف القطاعات الاقتصادية الأخرى، كالزراعة، الصناعة التجارة، هذا الشيء أدى بروما إلى تقسيم هذه الضريبة إلى ثلاثة أنواع: خاصة بالسلع، بالأفراد، بالجمركة، كما قسمت المقاطعات التابعة لها إلى مناطق جمركية، وذلك قصد الاستغلال الأمثل لهذا المورد الأساسي.

-كغيرها من المقاطعات الرومانية فقد عرفت بلاد المغرب القديم منذ بداية احتلالها سنة 146 ق.م، سياسة استنزافي استغلالية مست مختلف المجالات الاقتصادية، كالصناعة، الزراعة، التجارة، وحتى الضرائب، فهذه الأخيرة أولت لها الأهمية الكبرى، وذلك باعتبار المنطقة أبرز مورد جيائي، لذا فرضت عليها مجموعة من الضرائب بشتى أنواعها المباشرة أو الغير مباشرة، أهمها ضريبة البورتريوم أبرز مثال على ذلك، حيث أكدت مختلف المصادر الأدبية والمادية ما قلناه، ولعل أبرز مثال على هذه الأخيرة نقيشة زراي، حيث منذ اكتشافها في منتصف القرن ال19 ميلادي ، إذ كانت إحدى أهم المصادر التاريخية التي تؤكد على مدى تطبيق هذا النوع من الضريبة في المنطقة.

-كانت للسياسة الجبائية الرومانية الوحشية في بلاد المغرب القديم، تأثيرا سلبيا مسى مختلف المجالات سواء السياسة، الاقتصادية، العسكرية، الاجتماعية، حيث لم تهتم روما لا بوضع المنطقة أو حال الأهالي، ما كان يهيمها التحصيل الضريبي الأمثل لمختلف الضرائب بشقيها المباشر والغير مباشر، هذا الأمر أدى إلى امتعاض كبير بين السكان، مما نتج عنه ردود فعل قوية دامت لقرون، شملت مختلف أرجاء بلاد المغرب القديم، سواء انتفاضات، مقاومات، ثورات، انتهت في الأخير بطرد المحتل الروماني من المنطقة.

ضريبة البورتوريوم في بلاد المغرب القديم خلال القرنين الثاني والثالث ميلادي وأثرها على
المنطقة-نقيشة زراي أنموذجا-

قائمة المراجع

اولا المراجع باللغة العربية

1. الجودي حمومة. (2014/2015). الضرائب الرومانية في بلاد المغرب القديم، منذ سقوط قرطاج 148 ق.م إلى نهاية الاحتلال الروماني 430. مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ القديم . قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2.
2. أندريه ايمار، وأبوايه جانين. (1986). تاريخ الحضارات العامة " روما وإمبراطوريتها" (الإصدار 2، المجلد 2). (فريد داغر، وفؤاد أبو ريحان، المترجمون) بيروت-باريس: منشورات عويدات.
3. ترتليانوس. (2001). المنافحة أو الدفاع عن التوحيد. (عمار الجلاصي، المترجمون) تاليت.
4. دونالد ددلي. (1964). حضارة روما. (فريد فاروق، وجميل يواقيم الذهبي، المترجمون) مصر: دار نهضة مصر للطبع والنشر.
5. رمضان تسعديت. (1990). الإصلاحات السيفيرية في بلاد المغرب القديم(195-235م). رسالة ماجستير في التاريخ القديم . معهد التاريخ، جامعة الجزائر.
6. عبد السلام الجعافرة. (2013). التربية والتعليم بين الماضي والحاضر. عمان الاردن: مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع.
7. ف دياكوف، وس كوفاليف. (د.ت). الحضارات القديمة (الإصدار 2، المجلد ط1). (نسيم واكيم اليازجي، المترجمون) دمشق، سوريا: منشورات دار علاء.
8. محمد الحبيب بشاري. (2006/2007). دور المقاطعات الافريقية في اقتصاد روما بين 146 ق.م و285م. أطروحة لنيل شهادة دكتوراة في التاريخ القديم . كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر.
9. نجوى راشي. (2022). الحضور التاريخي لمدينة زراي قراءة في كيفية النشأة والتطور عبر التاريخ. مجلة هيروdot للعلوم الإنسانية والاجتماعية ، ع3.

ثانيا المراجع باللغة الاجنبية

1. Cagnat, R. (1880). le portorium: douanes, péages octrois chez les romains. *théses pour le doctorat ès lettres , étude historique, géographique et administrative* . Paris.
2. Corbier, M. (1991). Cité, territoire et fiscalité . *Actes de colloque de Rome (27-28 mai 1988)*. Publications de l'École Française de Rome.
3. France, J. (2014). Normes douanières et réglementation des échanges. trois questions simples sur le tarif de Zarái (Numidie). In : *Ant. Afr* .
4. Guédon, S. (2014). Le lex uestis peregrinae dans le tarif de zarái. *Antiquité africaines* .
5. Laet, D. (Oct 1950). Portorium. *Boak, AER, The classical weekly* .

6. lepelley, C. (1981). La crise de l'Afrique romaine au début du Ve siècle, d'après les lettres nouvellement découvertes de saint Augustin. *Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres* .
7. Lepelley, C. (1967). Déclin ou stabilité de l'agriculture africaine au Bas-Empire ? A propos d'une loi de l'empereur Honorius, 1967. *Antiquités africaines* .
8. pol, T. (2022). le tarif de Zarai: essai sur les circuit commerciaux dans la zone présaharienne . *Antiquités africaines* .
9. Rostovtseff, M. (1987). Capitalisme et économie nationale dans l'antiquité. *Pallas, Revue d'études antiques* .